كلية التربية للبنات

قسم التاريخ

الصف الثاني/ مادة التاريخ الأُموي

محاضرة بعنوان

(الصراعات القبلية وأثرها في سقوط دولة الخلافة الأُموية)

Tribal conflicts and their impact on the fall of the Umayyad Caliphate

أ.د. حَمّــاد فرحان حمادي المحمدي. Prof. Dr. Hammad f Hammadi.

ارتكز الحكم الأموي ، منذ نشأته على العصبية القبلية وغلب عليه الطابع العربي القومي الذي لازمه حتى زواله . ذلك أنَّ ظرف الصراع القيسي – اليمني ، الذي حمل العرب بذوره مع انطلاقهم من الجزيرة العربية ، انعكس على شخصية الدولة ، والبسها تلك الملمح القومية ، بالأضافة إلى ظروف الفتوحات وما نتج عنها من اختلاط بين السكان وتميّز العنصر العربي ، ويبدو أن الخلفاء الأمويين أنفسهم ، كانوا يستفزّون هذه الخلافات ، ويثيرونها أحياناً ، وأحياناً أخرى كانت تُفرض عليهم نتيجة تطور الأوضاع السياسية.

لقد كان معاوية ، وهو يعد خططه للسيطرة على الخلافة ، يجتهد في استخدام مختلف الاسلحة العسكرية والنفسية والإعلامية والسياسية ، من أجل الفوز بمعركة ، ولهذا فرضت عليه هذه المنهجية أن يتمسك بالعصبية القبلية ، التي أخمدت بعد حروب الردّة .

ومن الواضح أنَّ إحياء الروح القبلية ، كان في الوقت نفسه بعثاً للنظام الجاهلي القديم بما فيه من تناحر وتخاصم . ولقد وظّفَ معاوية في سياسته الداخلية لعبث التحالف القبلي المتوازنة ببراعة من خلال مصاهرته لبني كلب ، أقوى القبائل اليمنية في بلاد الشام .

وانصرف الأمويون بعد غياب معاوية الثاني ، إلى إنقاذ خلافاتهم المهددة بالسقوط . وكانوا أسيري القوى القبلية التي امتلكت زمام الأمور مع انهيار الحكم المركزي . وكلن معاوية الأول الذي أوجد تلم المعادلة القبلية التي حقّقت له التوازن خلال عهده الطويل ، يعيد في الوقت نفسه النزعة العصبية القديمة بصراعاتها التقليدية التي شاعت في العصر الأموي .

فالحزب اليمني ، وعلى رأسه قبيلة كلب بزعامة حسان بن بحدل ذات النفوذ القوي والواسع في الدولة ، كان متشدداً في الحفاظ على مكتسباته السياسية والاقتصادية ، وفي المقابل كان الحزب القيسي ، بزعامة الضحاك بن قيس ، قد وصل إلى درجة كادت تنافس الحزب اليمني وكان يطمح في الوصول إلى المركز القيادي ، لذلك اختار الجانب الآخر المعادي والمنافس للأمويين وحلفائهم فتحالف مع ابن الزبير الذي كانت حركته في تصاعد مستمر .

وفي المؤتمر الذي عقد في الجابية في عام (64هـ) أُنتخب مروان بن الحكم خليفة بالإجماع ، كما عُيّنَ خالد بن يزيد الذي رشّحه الكلبيون ولياً للعهد ، وبذلك نجح التحالف الأموي اليمني في توحيد صفوفه لمواجهة الخطر القيسي .

وهكذا توضّحت الصورة فإذا هي صراع قبلي. وتُعدّ الحرب القاسية التي دارت في مرج راهط عودة إلى حروب العرب في الجاهلية حيث العصبية كانت الدافع الأبرز للقتال . وجاءت النتائج لمصلحة التحالف الأموي اليمني بعد انتصاره الواضح على الحزب القيسي حيث قضى على عدد من زعمائه من بينهم الضحّاك .

والواقع أن هزيمة مرج راهط لم تكن مجرد خسارة عسكرية للحزب القيسي ، بل كانت نقطة تحوّل في حياته السياسية ، وظلّت في ضميره مفعمة بالحقد والكراهية ، كما خسر هذا الحزب بعض امتيازاته التي تمتع بها مناصروه أثناء زعامة الضحّاك . وكانت معركة الخازر التي حدثت في عام(67هـ) بين إبراهيم بن الأشتر وبين قوى أموية بقيادة عبيد الله بن زياد ، قد اصطبغت بصبغة الصراع الشيعي الأموي إلّا أنّهُ تخللها مواقف ذات صراع قيسي يمني وذلك حين تراجع عمير بن الحباب السلمي ونادى ((يا لثارات المرج)) ، وانتهت المعركة بانتصار واضح لقوات ابن الأشتر ، وقتل عبيد الله بن زياد في المعركة مع عدد كثير من جند الشام .

وبذلاً من أن يعمل خلفاء بني أمية على حسم هذا النزاع ووضع حد له ، إذا بهم ينحازون إلى فريق دون آخر مما ساعد على إتساع الهوّة بين العصبيتين ، وكان من نتيجة ذلك أن عانت الدولة كثيراً من هذا النزاع ، وفقدت الكثير من طاقاتها ، واستغلَّ الدعاة العباسيون هذه الثغرة لينفذوا منها إلى قلب دولة الخلافة الأموية ، للعمل على القضاء عليها .

وتعدُّ خلافة عمر بن عبد العزيز انتقال بين حالة القرث والضعف الذي اعترى التحالف الأموي اليمني . فقد كلن هذا الخليفة رجلاً صالحاً قضى مدّة خلافته في إصلاح ما أفسده مَن سبقه من الخلفاء ، فلم ينحاز إلى جانب أحد ، بل على العكس حاول التوفيق بين العصبيتين ، فلم يولِّ والياً إلّا لفاءته ومقدرته دون الأخذ بعين الاعتبار انتماءه القبلي ، فساد عهده الهدوء .

فلما توفى عمر خلفه يزيد الثاني ، الذي زجَّ نفسه في غمرة الصراع القيسي اليمني ، فأخذ جانب المضريّة ، فولّى أخاه مسلمة بلاد المشرق ، ثم ولّاها لعمر بن هبيرة وهو قيسي وقد اصطبغت الدولة كلّها في عهده بالصبغة القيسية ، وأصبح العنصر اليمني ضعيفاً ، لا سيما بعد قضاءه على أسرة المهلّب بن أبي صفرة التي أخلصت في خدمة الأمويين وهي من أزد اليمن .

وكان الأمراء على شاكلة الخلفاء ، يساعدون على إنماء هذه الروح العصبية ، فإذا وُلِّي يملني رفع رؤوس أهل اليمن واستعملهم عمّالاً ، فإذا خلفه مضري عزل اليمنيين وانتقم من سلفه وعمّاله ، ورفع رؤوس القيسيين .

ثم أخذ الخلفاء من بعده يعملون على توسيع شقّة الخلاف بين القبيلتين الكبيرتين اللتين تستند عليهما قوّة الأمويين وذلك وفقاً لاعتبارات سياسية فانضموا إلى القيسية حيناً وإلى اليمنية أحياناً .

ونلاحظ ازدياد حدّة الصراع القبلي في هذه المدّة في خراسان بشكل خاص ، بفعل سياسة أميرها مسلم بن زياد ، الذي فرّق بين قيس ويمن ، وكانت النتيجة أن اقتتل الفريقان في هراة .

كان هشام بن عبد الملك متقلباً في سياسته القبلية ، وفقاً للظروف السياسية التي عاشها ، وحاول في إحدى مراحل الصراع أن يعيد التوازن بين العصبيتين . وقد انحاز إلى جاني اليمنية في بادئ الأمر ، بعد ازدياد قوّة القيسيين ، إذ خشي من هيمنهم على الدولة ، وعمل على التخلص منهم ، فعزل العمال المضريين ، وولّى مكانهم بعض اليمنيين . فقد ولّى خالد بن عبد الله القسري العراق ، كما ولّى أخاه أسيداً على خراسان ، وبذلك أخذ الفريق اليمني يستعيد قواه ، فتعصّب الواليان لليمنية ، وانتقما مت القيسيين ، لكن سرعان ما انقلب هذا الخليفة على اليمنيين ، وانحاز إلى جاني القيسيين وولّى العمال منهم .

ولزم الوليد الثاني جانب القيسيين لأن والدته كانت منهم ، فأقصى اليمنيين عن دوائر الدولة ونكّل بهم ، فقد قتل خالد بن عبد الله القسري في عام (126هـ) في هد الخليفة الوليد الثاني لاتهامه بممالأة العلويين ، إلّا أن الحرب على اليمنيين والتخلص منهم كانت الدافع الأبرز . عدَّ اليمنيون مقتل خالد إهانة لهم وحمّلوا الخليفة مسؤولية هذا الحادث الذي أدّى إلى توحيد القبائل اليمنية ، لأوّل مرّة ، في العراق والشام ، وقد اتخذت موقفاً معادياً للخليفة ، وكلن أشد القبائل اليمنية نقمة ، بنو كلب في بلاد الشام ، فأخذوا يدبرون المكائد للتخلص منه ، وانتهزوا فرصة سخط الناس عليه ، واشعلوا نار الثورة ضدّه ، وقتلوه في عام (126هـ) وبايعوا يزيد الثالث .

لم يضع مقتل الوليد الثاني حداً للنزاع على السلطة بين أفراد البيت الأموي ، بل ساعد على تفاقم الوضع ، وظهر أثر ذلك في استمرار الانقسام بين الحزبين الكبيرين .

فقد انضم يزيد الثالث إلى اليمنية ، الذين أوصلوه إلى الحكم ، ولزم جانبهم ، وولّى العمال منهم ، فاستغل هؤلاء ذلك وأخذوا ينكلون بالقيسيين فثار هؤلاء في حمص وفلسطين والأردن ، وانضم إليهم عدد من رجالات بني أمية ، إلّا أنَّ يزيد الثالث استطاع أن يتغلّب علي خصومه بمساعدة اليمنيين .

وأخيراً انضمت القيسية إلى جانب مروان بن محمد المتطلع إلى منصب الخلافة ، واستفحلت النزاعات العصبية في عهد خلافته ، وشملت جميع أنحاء الدولة حتى تصدّع البيت الأموي ، وأشرف الأمويون على الزوال .

وقضى مزون الثاني جانباً من خلافته في إخضاع بعض أفراد الأسرة الأموية الذين خرجوا عليه بمساعدة اليمنيين ، أمثال: سليمان بن هشام بن عبد الملك .

وهكذا شهدت بلاد الشام والعراق وخراسان ، بشكل خاص حركات سياسية قائمة على العنصرية ، وأضحت مسرحاً للفتن والاضطرابات ، وشُغل مروان الثاني بإخمادها واستنفذت قواه ، فلم يلتفت إلى ما كان يجري في خراسان من بث الدعوة العباسية ، إلى أن اشتد أوارها ، وعظم خطرها ولم يلبث أن فاجأته الرايات السوداء مت خراسان وطاردته حتى قضت عليه وعلى دولته .